﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذيْن الركنين ، وتأتى الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هى الركن الوحيد الذى فُرض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرضَتْ بالوحى ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى بالرئيس الذى يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق - تبارك وتعالى - أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحى ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلَّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبى ﷺ لأمته قال له : أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى فى الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدنى .

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسةً ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هى الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق - عز وجل - حين يطلب من صنعته أن

تقابله وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذى يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَب ؟

وربك هو الذى يناديك ويدعوك للقائه ويقول : « لا أملّ حتّى تملُّوا »(١) ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ فى بيته وفى معيته فعلى الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها فى الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففى الصلاة تتكرر الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع فى الصلاة عما تمتنع عنه فى الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه فى صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان فى الاستبقاء ، لذلك كانت هى عمود الدين ، والتى لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّى بين الناس ، فيقف الغنى والفقير والرئيس والمرؤوس فى صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْبَ قدومه ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين .

وهذا يُحدث استطراقاً عبودياً فى المجتمع ، ففى الصلاة مجال يستوى فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل . إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم فى الصلاة ، وقوام المادة فى الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور] وهنا فى الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة ؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه فى فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما فى السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. (٥٦) ﴾ [النور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ .. (٥٧) ﴾ [النور] يعنى : لا تظنن ، والشىء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعنى : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما علَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلتون من عقاب الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُملى لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم ، أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدركهم لا محالة .

وجاء على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) ﴾ [الجن]

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٥٧) ﴾ [النور] أنها عطفتْ هذه الجملة على سابقتها ، وهى منفية ﴿ لا تَحْسَبَنَّ .. (٥٧) ﴾ [النور] فهل يعنى هذا أن معناها : ولا تحسبن مأواهم النار ؟ قالوا : لا ، إنما المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض لأن مأواهم النار .

﴿ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾ [النور] أى : المرجع والمآب .

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمسُّ المجتمع من داخله والأسرة فى أدقِّ خصوصياتها ، بعد أنْ ذكر فى أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجى ، فيقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ[1] مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) ﴾

تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبويْن والأبناء ، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

يريد أن يُنشِّىءَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعنى : يا من آمنتم بى رباً حكيماً مُشرِّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ .. (٥٨)﴾ [النور]

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتى على صورتين : فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ .. (٥٨)﴾ [النور] يعنى : علِّموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم ، مثل : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣)﴾ [النور] يعنى : استعفوا ، لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧)﴾ [الطلاق]

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكلِّف به كل مؤمن داخل الأسرة ، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم ملْك اليمين والأطفال الصغار ، فأمر الله الكبارَ أن يُعلِّموا الصغار ، كما ورد فى الحديث الشريف : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] .

فلم يُكلِّف بهذا الصغار إنما كلَّف الكبار ؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْد مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم ، لذلك أنت الذى تأمر وأنت الذى تتابع وتعاقب[2] .

وأَمْرُ الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لِتُربى فيه الدربة والتعود

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٨٧/٢) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

(٢) قال الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٨٩ : « إن قلت : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم ، مع أنهم غير مكلفين ؟ قلت : الأمر فى الحقيقة لأوليائهم ليؤدِّبوهم » .

على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَره ، إنما إنْ عوَّدته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سنِّ التكليف ، وتتحول العادة في حقه إلى عبادة يسير عليها .

وشرع الله لنا آداب الاستئذان ؛ لأن للإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخاصة من أهله في أمور لا يُظهرها على الآخرين ، إذن : فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة ، وحرية المرء في أسرته أوسع من حريته في المجتمع العام ، فإنْ كان في حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة .

فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمي هذه الخصوصيات ، وتُنظِّم علاقات الأفراد في الأسرة الواحدة ، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. (٥٨) ﴾ [النور] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير، لأن الأجير حر يستطيع أن يتركك في أي وقت ، أمَّا العبد فليس كذلك ؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له ، فالمملوكية راجحة في هؤلاء ، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفلِت منه .

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ .. (٥٨) ﴾ [النور] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلَغ التكليف ، ويقضون المصالح ؛ فتراهم في البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط ، فهل نتركهم هكذا يطَّلعون على خصوصياتنا ؟

وللخدم في البيت طبيعة تقتضي أن يدخلوا علينا ويخرجوا ،

وكذلك الصغار ، إلا فى أوقات ثلاثة لا يُسْمح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان : ﴿مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ .. (٥٨)﴾ [النور] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان فى النوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨)﴾ [النور] وهو وقت القيلولة ، وهى وقت راحة يتخفَّف فيها المرء من ملابسه ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ .. (٥٨)﴾ [النور] وبعد العشاء النوم . هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبغى لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك .

وانظر إلى هذا التحفّظ الذى يوفره لك ربك - عز وجل - حتى لا تُقيِّد حريتك فى أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة ، وكأن هذه الأوقات ملْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذان يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن .

أما فى بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر فى أمر من الأمور ، فأرسل إليه غلاماً[1] من الأنصار ، فلما ذهب الغلام دفع الباب ونادى : يا عمر . فلم يرد ؛ لأنه كان نائماً ، فخرج الغلام وجلس فى الخارج ودَقَّ الباب فلم يستيقظ عمر ، فماذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السماء وقال : يا رب أيقظه . ثم دفع الباب ودخل عليه ، وكان عمر نائماً على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستيقظ عمر ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبى ﷺ قال : يا رسول الله نريد أن يستأذن علينا أبناؤنا

(١) هو : مدلج الانصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٧٨٥٢) وذكر هذا الحديث وقال : « أخرجه ابن منده من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس » ذكره ثم قال : « وفيه أن النبى ﷺ قال للغلام « انت ممن يلج الجنة » .

ونساؤنا وموالينا وخدمنا ، فقد حدث من الغلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية[١] .

ويُسمِّي الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة : ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ.. (٥٨)﴾ [النور] والعورة : هي ما يحب الإنسان ألاَّ يراها أحد ، أو يراه عليها ؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أنْ يراك أحد على شيء تكرهه .

لذلك يقولون لمن به خَلَل في عينه مثلاً : أعور ، والعرب تقول للكلمة القبيحة : عوراء[٢] ، كما قال الشاعر :

وعَوْراء جاءتْ من أخٍ فردَدْتُها بِسالمةِ العَيْنيْنِ طَالبةً عُذْراً[٣]

يعني : كلمة قبيحة لم أردّ عليها بمثلها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل بسالمة العينين الاثنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ .. (٥٨)﴾ [النور] يعني : بعد هذه الأوقات : لا إثمَ ولا حرجَ عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أنْ يدخلوا عليكم ، ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مُسْتعداً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الخَدَم أو الأطفال الصغار دون استئذان ؛ لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ..

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٨٤٠) : « قال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدلج على عمر » .

(٢) قال أبو الهيثم : يقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء : عيناء . وقال الليث : العوراء الكلمة التي تهوى في غير عقل ولا رشد . [لسان العرب ـ مادة : عور] .

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب ـ مادة عور . ولم يذكر اسم الشاعر .

(٥٨)﴾ [النور] يعنى : حركتهم فى البيت دائمة ، دخولاً وخروجاً ، فكيف نُقيِّدها فى غير هذه الأوقات ؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ .. (٥٨)﴾ [النور] أى : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث فى المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ .. (٥٨)﴾ [النور] بكل ما يُصلح الخلافة فى الأرض ﴿حَكِيمٌ (٥٨)﴾ [النور] فى تشريعاته وأوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كان يدخل دون استئذان فى غير هذه الأوقات ، فإنْ بلغ الحُلُم فعليه أنْ يستأذن ، لا نقول : إنه تعوَّد الاستئذان فى هذه الأوقات فقط ، لا ، إنما عليه أنْ يستأذن فى جميع الأوقات فقد شَبَّ وكَبِر ، وانتهتْ بالنسبة له هذه الحالة .

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله ، فهذه علامة اكتمال تكوينه ، وهذا لا يتأتّى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التى هى سَبَب النَّسْل والإنجاب ، ومثَّلْنا ذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نُضْجها ، فإنْ تركتَها بعد النضج سقطتْ من نفسها ، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع ، فلو أكلنا الثمرة قبل نُضْجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها ، فمن حكمة الله فى الخَلْق ألاَّ تحلو الثمرة إلا بعد النُّضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب ، ونقول له : انتهتْ الرخصة التي منحها لك الشرع ، وعليك أن تستأذن في جميع الأوقات .

لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

وجاء بالطفل بصيغة المفرد ؛ لأن الأطفال في هذه السِّنِّ لم تتكوّن لديهم الغريزة ، وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكأنهم واحد ، أمّا بعد البلوغ وتكوُّن الميول الغريزية قال : ﴿ الأَطْفَالُ .. (٥٩) ﴾ [النور] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته .

وقوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [النور] أي : من الكبار الذين يستأذنون في كل الأوقات ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [النور] أي : مثل ما بيّنا في الاستئذان الأول ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .. (٥٩) ﴾ [النور] لأنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ .. (٥٩) ﴾ [النور] بما يُصلحكم ﴿ حَكِيمٌ (٥٩) ﴾ [النور] لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسير عليها في زِيِّها وسلوكها ومِشْيتها ، حمايةً لها وصيانةً للمجتمع من الفتنة ،

وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فجعل لها حجاباً يسترها يُخفى زينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً ، وقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لَهُنَّ حكم آخر .

والقواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أمّا القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذى قعد عن دورة الحياة ، ولم يَعُدْ له مهمة الإنجاب ، ومثل هؤلاء لم يَعُدْ فيهنَّ إرْبة ولا مطمع ؛ لذلك لا مانعَ أن يتخفَّفْنَ بعض الشيء من اللباس الذى فُرض عليهن حال وجود الفتنة ، ولها أن تضع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك : نسبية يعنى : فمن النساء مَنْ ينقطع حَيْضها ويدركها الكِبَر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ؛ لذلك ربنا - تبارك وتعالى - وضع لنا الحكم الاحتياطى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور] ثم يدلُّهن على ما هو خير من ذلك ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ .. (٦٠) ﴾ [النور]

والمقصود بوَضْع الثياب : التخفّف بعض الشيء من الثياب الخارجية شريطة ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أَخْذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج . ونخشى أن نُعلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخُذْنَ به حتى لا نقول عنهن : إنهن قواعد !!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السِّنَّ فتجدها وَرِعة فى ملبسها ، وَرِعة فى مظهرها ، وَرِعة فى سلوكها ، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وآسرية ، على خلاف التى لا تحترم سنّها فتضع على

وجهها المساحيق والألوان فتبدو مَسْخاً مُشوَّهاً .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْفِفْنَ .. (٦٠) ﴾ [النور] أي : يحتفظْنَ بملابسهن لا يضعْنَ منها شيئاً ، فهذا أدْعى للعفة .

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ علَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١) ﴾ [النور] الحرج : هو الضيق ، كما جاء في قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

أو الحرج بمعنى : الإثم ، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضِّيق

أو الإثم الذى يتعلق بالحكم الآتى فى مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

والأعمى يتحرَّج أنْ يأكل مع الناس ؛ لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدتْ يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة فى جلْسته ، وربما ضايق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس . فرفَع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور]

فيصح أن تأكلوا معاً ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يجعل التكامل فى الذوات لا فى الأعراض ، وأيضاً أنك إنْ رأيتَ شاباً مَؤوفاً[1] يعنى به آفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحْتَ شعوره ، حتى إنْ كان ما به أمراً خَلْقياً من الله لا يتأباه ، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها .

لذلك كانوا فى الريف نسمعهم يقولون : اللى يعطى العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضى بهذا الابتلاء ، وتعامل مع الناس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ؛ لذلك ترى الناس جميعاً يتسابقون إلى مساعدته والأخْذ بيده ، فإنْ كان قد فقد عيناً فقد عوَّضه الله بها ألف عَيْن ، أما الذى يتأبّى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدى نظارة سوداء ليخفى بها عاهته فإنه يسير مُتعسِّراً يتخبَّط لا يساعده أحد .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع

---

(١) مؤوف : أصابته آفة . والآفة : العاهة . وآفت البلاد : صارت فيها آفة . [لسان العرب - مادة : أوف] .

منهم موقفاً[1] ؛ لذلك يعطف علي ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] ثم يقول سبحانه ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : هم مثلكم تماماً ، فلا حرجَ بينكم فى شىء .

﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ..(٦١)﴾ [النور] إلخ .

وكان فى الأنصار قزازة[2] ، إذا جلس فى بيت لا يأكل منه إلا إذا أذنَ له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده فى البيت دون أنْ يأذنَ له فى الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أنْ يأكل منه التابع شيئاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ..(٦١)﴾ [النور] إلى آخر هذه المعطوفات .

ولقائل أنْ يقول : وأىّ حرج فى أنْ يأكل المرء من بيته ؟ وهل كان يخطر على البال أنْ تجد حَرَجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا : لو حاولتَ استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين فى الآية لتبيّن لك الجواب ، فقد ذكرتْ الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم فى مقدمة هذا الترتيب ، لماذا ؟

---

(١) قال ابن عباس : لما أنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (١٨٨)﴾ [البقرة] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمريض لا يستوفى الطعام . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٨٩] .

(٢) القزازة : الحياء . قزّتْ نفسى عن الشىء : أبَتْه وعافَتْه . وتقزز الرجل من الشىء : لم يطعمه ولم يشربه بإرادة . [لسان العرب ـ مادة : قزز] .

قالوا : لأن بيوت الأبناء هى بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكتْ يداه ملْك لأبيه ، إذن : لك أن تضع مكان ﴿ بُيُوتِكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق - تبارك وتعالى - لم يُردْ أنْ يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء ، لأنهما شىء واحد .

إذن : لا حرجَ عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] يعنى : يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته[1] ، وفى هذا إذْنٌ لك بالتصرُّف والأكل من طعامه إنْ أردتَ .

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] وتلحظ فى هذه أنها الوحيدة التى وردتْ بصيغة المفرد فى هذه الآية ، فقبلها : بيوتكم ، آبائكم ، أمهاتكم .. إلخ إلا فى الصديق فقال ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] ولم يقل : أصدقائكم .

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصيغة المفرد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء]

لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلب رجل واحد ، وإلا ما كانوا أصدقاء ، وكذلك فى حالة العداوة نقول عدو ، وهم جمع ؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكأنهم واحد .

---

(١) عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول فى هذه الآية : أنزلت فى أُناس كانوا إذا خرجوا مع النبى ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما فى بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة . فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٠] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور] ﴿ جَمِيعًا .. (٦١) ﴾ [النور] سوياً بعضكم مع بعض ، ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١) ﴾ [النور] متفرقين ، كُلٌّ وحده .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ[1] تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١) ﴾ [النور] على أنفكسم ، لأنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك ، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيمانى وحدة متماسكة ، فحين تقول لغيرك : السلام عليكم سيردّ : وعليكم السلام . فكأنك تُسلِّم على نفسك .

أو : أن المعنى : إنْ دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلِّموا على أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا : السلام على رسول الله وعلينا من ربنا ، قالوا : تُسمع الملائكة وهى ترد .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١) ﴾ [النور] وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةً .. (٦١) ﴾ [النور] والشيء المبارك : الذى يعطى فوق ما ينتظر منه ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٦١) ﴾ [النور] أى : كما بيَّن لكم الأحكام السابقة يُبيِّن لكم ﴿ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٥٧) : « الأوجه أن يقال : إن هذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وإن لم يكن فيه ساكن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وإن كان فى البيت من ليس بمسلم قال : السلام على من اتبع الهدى أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

أى : أن الذى كلّفكم بهذه الأحكام رَبٌّ يحب الخير لكم ، وهو غنيٌّ عن هذه ، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم ، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به انتفعتُم بأوامره فى الدنيا ، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ(١) لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾

المؤمن : مَنْ آمن بإله وآمن بالرسول المبلّغ عن الإله ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالرسول المبلِّغ عن الله فلا بُدَّ أن تكون حركتك خاضعةً لأوامره ، ويجب أن تكون ذاتك له ، فإذا رأى الرسول أمراً جامعاً يجمع المسلمين فى خَطْب أو حدث أو حرب ، ثم يدعوكم إلى التشاور ليُدلى كل منكم برأيه وتجربته ، ويُوسِّع مساحة الشورى فى المجتمع ليأتى الحكم صحيحاً سليماً موافقاً للمصلحة العامة .

فالمؤمن الحق إذا دُعى إلى مثل هذا الأمر الجامع ، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله ﷺ ، وليس إلزاماً أنْ يأذن له رسول الله ﷺ ؛ لأن أمر المسلمين الجامع لهم قد يكون أهمّ من الأمر الذى يشغلك ، وتريد أن تقوم من أجله ، وتترك مجلس رسول الله ﷺ .

---

(١) اختلف فى الأمر الجامع ما هو ؟ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة فى الدين أو لترهيب عدو باجتماعهم ، وللحروب . وقال مكحول والزهرى : الجمعة من الأمر الجامع . [تفسير القرطبى ٤٨٥٨/٦] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خلْسة (وينسلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بُدَّ من أنْ يستأذن رسول الله حتى لا يُفوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رأىٌ ينتفع به .

والرسول إنما يستشير أصحابه ليستنير برأيهم وتجاربهم ، فحين يدعوهم إلى أمر جامع يجب أن يُفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاغه عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر نفراً للتشاور ، فإنما يتشاوران فى أمر شخصى يخصُّ صاحبه ، لكن حين يدعوهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة ، شاء الله أن تكون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التى تنتظم كل الناس خَيْراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أنْ يُقدِّر المدعو هذا الفارق .

ومع وجود هذا الفارق لم يَحْرم اللهُ بعضَ الناس الذين لهم مشاغل أنْ يستأذنوا فيها رسول الله وينصرفوا ؛ لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أنْ يضعوا هذا الفارق فى بالهم ، وأنْ يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم فى أمر لشئون الدنيا كلها إلى أنْ تقوم الساعة .

فكأنه إنْ شارك فى هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته : المعاصرون منهم والآتُون إلى أنْ تقومَ الساعة ، فإنْ فضَّل شأنه الخاص على هذه الشئون فقد أساء ، وفعل ما لا يليق بمؤمن ؛ لذلك أُمر رسول الله أنْ يأذنَ لمنْ يشاء ، ثم يستغفر له اللهَ .

يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ..(٦٢) ﴾ [النور] فالأمر متروك لرسول الله يُقدِّره حَسْب مصلحة المسلمين العامة ، فَلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن فى الباقين عوَضاً عنه وعن رأيه ، فإنِ استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمونَ لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ..(٦٢) ﴾ [النور] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أذن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يُهِمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عمَّا دُعى إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخَر ، ففى الأمر الجامع ينبغى أنْ يُكتِّل الجميع مواهبهم وخواطرهم فى الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾